

مقدمة

تأتي هذه الدراسة لمواصلة المسار الذي بدأناه في دراسة السرد العربي القديم من خلال العمل الأول المتعلق بالخبر في السرد العربي والذي عملنا فيه على مقارنة البنيات السردية البسيطة "الخبر" في التراث السردى العربي، واعتبرنا بأن الخبر هو النواة المركزية في كل خطاب سردي، فهو الأصل الذي تتفرع عنه التحليلات السردية المركبة الأخرى. كما توقفنا في دراسة لاحقة عند مفهوم التوالد السردى قاربنا من خلاله أنساق التركيب في السرد العربي مركزين على التحليلات الأساسية لهذا التوالد في صورتيه الأفقية والعمودية.

وفي هذه الدراسة نحاول أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام في ملامسة جوانب أخرى من النص السردى التراثى، وتمرکز اهتمامنا حول طرق اشتغال التخيل في إعادة بناء النص السردى العربي، خصوصاً تلك النصوص التي توحى بطابعها الواقعي التوثيقي، وتكون في بنائها أقرب إلى النص التاريخي منه إلى النص الأدبي التخيلي.

التحليلات النصية من هذا القبيل هي كثيرة ومتعددة في التراث السردى العربى، ويصعب مقاربتها جميعاً في دراسة واحدة مفردة، ولهذا انتقينا عينة من النصوص اعتبرناها تمثل تنوعاً في التحليلات السردية التي يتفاعل فيها الواقعي بالتخيل في نسق سردي منسجم يساهم في بناء دلالة خاصة. وحصرنّا هذا المتن في ثلاثة نصوص أساسية هي: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، السيرة النبوية في بعض تحولاتها التاريخية، ثم خطاب الرحلة من خلال الرحلة العياشية.

القاسم المشترك بين هذه النصوص أنها تحكي ما وقع فعلاً؛ فابن منقذ وكما يصرح بذلك يدون مراحل من حياته في آخر عمره، وهو بذلك يكون مؤسساً بصورة أو بأخرى لما يعرف الآن بالسيرة الذاتية، وإن كان نص الاعتبار لا

يستجيب لكل مقومات السيرة الذاتية بمفهومها الحديث. وقد أتاح لنا الطابع التوثيقي للنص إمكانية مقارنة اشتغال التخيل إلى جانب الواقعي في نوع من التماهي والتداخل.

أما السيرة النبوية، فهي أميل إلى التاريخ منها إلى التخيل، خصوصاً وأنها ترتبط بشخصية لها وزنها التاريخي والقدسي في الثقافة العربية الإسلامية. وقد ساهم هذا الطابع القدسي من خلال الاعتقاد في تفرد شخصية الرسول ﷺ، في تحولات كبيرة في بناء الصورة النموذج له عبر الترهينات المتوالية للسيرة في أزمنة متلاحقة، وهو ما فتح الباب لتسرب تخيلية خاصة للسيرة تدعم قدسية الشخصية وتفرداها، وحاولنا إبراز جوانب منه خصوصاً في علاقته بالمعجزة.

أما الرحلة العياشية فهي تقترب في بنيتها العامة من نص الاعتبار باعتمادها على ضمير المتكلم، وتدوين مراحل الرحلة ذهاباً وإياباً إلى الديار المقدسة. لكن ميزتها تتمثل في التداخلات الخطابية بين السرد والوصف والتقريب، واشتغال التأويل إلى جانب السرد والتوثيق؛ فتفاعل في تكون النص خليط من الخطابات فتح الباب أمام تخيلية خاصة تنكشف من خلال الوعي الحاضر للرحالة - السارد وهو يتذكر وقائع الرحلة في زمن لاحق ويعمل على وضع نسق خاص لها يفي بالشروط المعرفية لتلقيها.

من أجل بلوغ هذه الغايات كان لا بد من وضع أدوات منهجية دقيقة تجعلنا نتحول من البنيوي إلى الدلالي في نوع من الانسجام والتكامل، وكان همتنا هو رسم مسار لانفتاح السرديات على حقول معرفية قريبة تطعمها وتمكن الدارس من استغلال نتائج الوصف البنيوي في بناء أنساق دلالية خاصة. وقد وجدنا في بعض المفاهيم التداولية خير جسر للعبور من الأنساق البنيوية إلى الأنساق الدلالية، فوظفناها في نوع من الحيلة والحذر ضمناً لانسجام مسارات التحليل، ولبلوغ الأهداف المتوخاة من ذلك.

بناء على هذا التصور تضمنت هذه الدراسة باين:

باب نظري، يتضمن فصلين. ركزنا في الفصل الأول على بناء تصور منهجي منسجم يضمن مد الجسور بين السردية والتداولية مبرزين العلاقة التي يمكن أن توجد بين الدراسات السردية والدراسات التداولية. وخصصنا الفصل الثاني لبناء

مفهوم التخيل باعتباره يمثل مفهوما مركزيا في المقاربة ونحن نرصد طرق اشتغاله في النصوص.

أما الباب الثاني فأخذ طابعا تطبيقيا وتضمن ثلاثة فصول خصصنا فصلا لكل نص من النصوص التي جعلناها متنا للاشتغال، مركزين على الجوانب البنيوية السردية أولا ثم التشكلات الدلالية من خلال رصد المقصدية التواصلية التي يرمي النص تحقيقها في علاقته بالمتلقي، وطرق تفاعل الواقعي والتخيلي في ذلك. ثم ختمنا بتركيب سجلنا فيه أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه المقاربة النصية.

أملنا أن نكون قد حققنا بعض ما نصبو إليه بقراءتنا لجوانب من التراث السرد العربي، وأن يجد القارئ بين سطوره ما يفتح له آفاقا جديدة لتأمل هذا التراث الذي يعتبر جزءا من وجودنا وتاريخنا وكياننا. والله ولي التوفيق.

د. سعيد جبار